# الرواية وإشكالية التصنيف: خيط الرّشق نموذجا

د. عواد أحمد الدندن
جامعة آل البيت، الأردن

awwad1984@gmail.com



| تاريخ الإرسال: 2020/11/25 | تاريخ القبول: 2020/12/26 | تاريخ النشر: 2021/12/01 |
|---|---|---|



# Novel and problematic classification throwing string as a model

***Abstract***

narrative styles varied in the modern era, and novel became an open text in the eyes of critics and scholars , and its overlapping with the two kinds of biography of the most prominent manifestations of experimentation, so critics called this term an Open Text, this research came as an Empirical Study of the novel throwing string to indicate the level of overlaping by tracking narrative techniques that employed in terms of reference and text thresholds and narration in the term first person technique, so that this study came in introduction, conclusion, and three sub-headings.

***Key words***: throwing string , biography, jordanian novel

**مُلخّص البحث**

تعددت الأنماط الروائية في العصر الحديث، وباتت الرواية في نظر النقاد والدارسين نصّا مفتوحاً، ويعد تداخلها مع السيرة بشقيها الذاتي والغيري من أبرز مظاهر التجريب، لدرجة أطلق النقاد عليها مصطلح النّص المفتوح، وقد جاء هذا البحث دراسة تطبيقية لرواية خيط الرشق لبيان مستوى التداخل بتتبع التقنيات السردية الموظفة من حيثُ المرجعية والعتبات النصّية والسّرد بضمير المتكلم، ولهذا جاءت هذه الدراسة في مقدّمة وثلاثة عناوين فرعية وخاتمة.

**الكلمات المفتاحية:** خيط الرّشق، السيرة، الرواية الأردنية.



المنارة للاستشارات
ww

**مقدّمة**

كثر حديث النّقاد والمنظرين حول العلاقة ما بين الرواية والسيرة بشقيها الذاتي والغيري في جانبه النظري، الأمر الذي يفرض على هذه الدراسة التمييز بين الفنين في جانبه العملي (التطبيقي)، فما قيل بحق هذا التعالق – بين الرواية والسيرة- في جانبه النظري ليس بالقليل، إذ شرع النّقاد إلى الوقوف على نقاط التوافق والاختلاف، منطلقين في ذلك من فرضيات نقدية متّكئةٍ على تنوع مستويات الخطاب وتعدد الفلسفة والتشكيل في السّرد الروائي، فالرواية هي الفن الحاضن لفنون الخطاب المتعددة، والمتداخلة مع الأجناس الأدبية الأخرى لدرجةٍ أنّ " النّقاد لديهم اعتقاد قوي أنّ السيرة الذاتية ليست إلّا جسراً للعبور إلى كتابة الرواية، فكاتب الرواية- في بدايته- انطلاقاً من معرفته الحميمية بنفسه يكتب عن نفسه، وقد أشار عددٌ من النّقاد إلى أنّ العمل الروائي لدى أغلب الروائيين لا يخلو من تماس مع الذات"(1)، بهذا يتبين أنّ كتابة الرواية تمر بمراحل لدى كاتبها، تبدأ المرحلة الأولى من طور الذات والاتكاء على حياة الشخصية الكاتبة، لتكون بوابة الولوج إلى مرحلة الإبداع والشروع في الإنتاج الفني، فهذا (فيليب لوجون phillipe lejeune)، يفرّق بين السيرة الذاتية ورواية السيرة الذاتية إذ يقول: " يجب أن نعترف بأن لا وجود لأي فارق إذا بقينا عند مستوى التحليل الداخلي للنص، فكل الأساليب التي تستعملها السيرة الذاتية من أجل إقناعنا بواقعية محكيها، يمكن أن تقلدها الرواية، بل وقد قلّدتها في كثيرٍ من الأحيان" (2)، ففي الرواية الواقعية يغدو الراوي شخصية مجسّدة، لذلك فهو " ككاتب السيرة أديب فنان كالشاعر والقصصي في طريقة العرض والبناء، إلا أنّه لا يخلق الشخصيات من خياله، ولا يعتمد الشخصيات الأسطورية ككاتب المسرحية، فهو لا يستطيع أن يقول شيئاً عن أوديب أو شهرزاد لأن شخصياته تتصل بالمكان والزمان، ولا توجد إلا بوجودها"([3]). ليس هذا وحسب؛ بل إنّ كتابة الرواية قد أخذت أنماطاً جديدةً من التعبير، إذ توجّه بعض الروائيين إلى أدب السيرة الذاتية لشخصيات تركت أثراً واضحاً لصياغة أعمالهم الروائية، واكتفى دوره بسرد الأحداث كما هي في السيرة متخذاً من صاحبه بطلاً لروايته، ولهذا تحدث مثل هذه الأعمال إشكالية في التصنيف، ويغدو القارئ وهو يمارس عملية القراءة في حيرةٍ من أمره، هل ما يقرأ سيرة ذاتية أم عملاً روائياً؟.



المنارة للاستشارات

إنّ ظاهرة التداخل بين الرواية والسيرة باتت من الظواهر الأدبية التي تسترعي الوقوف وإعادة النظر في النصوص الأدبية الحديثة، ذلك أنّها – ظاهرة التداخل- أوقعت الفن الروائي في إشكالية التصنيف لدرجةٍ يصعب على القارئ أن يحكم على النّص الذي يصادفه أنّه رواية أم سيرة، لاسيما في الرواية الواقعية التي تستمد مضمونها من الواقع، وتتكئ في رسم شخصياتها على نماذج حيّة يمكن رؤيتها ومعايشتها في الحوادث اليومية، وفي أثناء حديث (ليتون ستراتشي . Strachey) عن فن السيرة الذاتية والأهمية التي وصلت إليها يرى أنّ فن السيرة " هو أدق وأرق فنون الكتابة، وأنّ مصدر هذه الرّقة كون كاتب السيرة يسعى إلى أن يعيش الحياة فيما تبقّى من مادة جامدة تختلف وراء عبور إنسان ما لهذه الحياة الدنيا، فيسعى إلى أن يسترد ما كان بمثابة الرّوح والجسد والمشاعر ويصوغها على صورة ذلك الإنسان الغابر، ومصدر هذه الرّقة أن عملية السيرة هي بطبيعتها عملية تتسم بالانسيابية والتهذيب والمدنية، ولمّا كانت هذه العملية تجمع بين الّقة والرّقة فإنها تشمل على كل ما في الحياة من غموض ومتناقضات، والسيرة باختصار تشبه النّفس البشرية في تغيرها واستمرارها، وانضباط العاطفة والمزاج فيها"(4) كل هذه الأمور مجتمعة تفرض على الباحث الوقوف إلى كلا الفنين (الرواية والسيرة) والتعرف إليهما ليتسنى له كشف الضبابية التي تلتف بها بعض الأعمال الروائية التي أحدثت إشكالية من حيثُ التصنيف.

**أولاً: مفهوم السيرة**

ورد تعريف أنّها " الطريقة أو السّنة والهيئة، وسار الوالي في الرعية سيرة حسنة وأحسن السّير وهذا في سير الأولين، وقال خالد بن زهير: " فلا تغضبَنْ من سنّة أنت سِرتها، فأول راضي سنّة من يسيرها"(5).

وورد أيضاً تعريفها أنّها " حكي استرجاعي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"(6).

أمّا السيرة الغيرية فهي" بث عن الحقيقة في حياة إنسان فذ، وكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التي عاشها والأحداث التي واجهها في محيطه، والأثر الذي خلّفه في جيله"(7).



المنارة للاستشارات

وجاء تعريف السيرة أيضاً في عدد من المصادر والمراجع أنها " عمل أدبي، رواية، أو قصيدة، أو مقالة فلسفية يعرض فيها المؤلف أفكاره ويصور إحساسه بشكل ضمني أو صريح"(8).

يرى بعض الدارسين أنّ السيرة " نوعٌ من الأدب يجمع بين التحري التاريخي، والإيقاع القصصي، يراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته"(9).

والسيرة" قصّة حياة، كيف أصبحت ما كانته، وكيف أصبحت نفس ما هي عليه" (10).

صاغ بعض النقّاد حوافز شجّعت الكتابة السير ذاتية في الأدب العربي، يمكن إجمالها بما يلي: (11)

1- التبريرية: وهي التي كتبت للدفاع أو الاعتذار
2- الرغبة في اتخاذ موقف ذاتي من الحياة
3- التحقق من ثورة أو انفعال
4- تصوير الحياة المثالية
5- تصوير الحياة الفكرية
6- الرغبة في استرجاع الذكريات

يتبين من خلال التعريفات السابقة للسيرة – واستخدم هنا لفظي سيرة وترجمة بمعنى واحد- أنّها تتداخل مع فنون الخطاب الأخرى من كونها تقبع تحت مظلة السرد النثري، وليس هذا وحسب، بل تنطلق بتداخلها من زوايا سيتم الوقوف عليها فيما بعد، وأحسب هنا أنّ فن الرواية من أقرب الفنون النثرية لذلك التداخل، فالرواية تتسم بالانسيابية والرحابة إضافة لطبيع السّرد والرواية هي الفن النثري الذي قال فيه النّقاد والدارسون أنّها " تسمح بأن تدخل إلى كيانها جميع أنواع الأجناس التعبيرية، سواءٌ أكانت أدبية (قصص، أشعار، قصائد، مقاطع كوميدية)، أو خارج أدبية (دراسات عن السلوكيات، نصوص بلاغية وعلمية ودينية الخ) نظرياً، فإنّ أي جنس تعبيري يمكنه أن يدخل إلى بنية الرواية، وليس من السّهل العثور على جنس تعبيري واحد لم يسبق له يوم ما أن ألحقه كاتب أو آخر بالرواية، وتحتفظ تلك الأجناس عادةً بمرونتها واستقلالها وأصالتها اللسانية والأسلوبية أكثر من ذلك، فإنّه توجد فئة من الأجناس التعبيرية الخاصة التي تلعب دوراً بنّاءً جد هام داخل الرواية، بل إنّها أحياناً تحدد بنية



المنارة للاستشارات
ww

المجموع خالقة بذلك مغايرات للجنس الروائي، تلك الأجناس هي الاعترافات، والمذكرات الخاصة ومحكي الأسفار والبيوغرافيا (كتاب سيرة) والرسائل "(12).

**ثانياً: الرواية وتداخلها مع السيرة**

يمكن للرواية أن تحتضن الأجناس الأدبية على تعددها وتنوعها، حيثُ يؤثر ذلك في مسيرة الرواية وكيانها ايجاباً وسلباً، أمّا الجانب الايجابي فلا شك أنّه يكمن في بث الحياة فيها بتنوع الأساليب، والتخلص من تلك القيود البالية التي كبلتها لفترات زمنية طويلة والتي جعلت منها فناً مقيداً جامداً، ففي مراحل زمنية سابقة لم تحظ الرواية بتلك العناية التي وجدتها في العصر الحديث، بل إنها في فترات زمنية لم ينسب إليها مصطلح رواية، وإنما اكتفى النقاد والدارسون بنعتها بالقصّة الطويلة، أمّا في عصرنا الحديث فقد كتب عن الرواية ما لم يكتب عن غيرها، إذ حظيت بعناية النقّاد والدارسين، لدرجة أطلق معظمهم على زماننا أنّه زمن الرواية، أمّا عن الدور الذي يؤديه هذا التداخل الأجناسي؛ فلا شك أنّه يساعد الرواية في تحديد شكلها فيظهر تبعاً لذلك أنواع روائية منها رواية السيرة الذاتية ورواية الرسائل والرواية المسرواية وغيرها من الأنماط الروائية الحديثة، وقد لجأت الرواية إلى تلك الأجناس على اعتبارها- الأجناس- مرآة للواقع ومشيّدة له، إضافة إلى أن هذه الأجناس بنات عصرها لها ما له- العصر- من حياة التطور والتجديد.

أمّا الجانب السلبي الناتج عن هذا الاحتضان، فإنّه يكمن في أن تفقد الرواية هُويتها وجنسها، ذلك أنّك تجد وأنت تقرأ رواية ما أنّه من الصّعب أن تصنّف هذا العمل ضمن فن الرواية، مما يستدعي إلى قراءات متعددة لحدود الجنس الأدبي، وهذا ما لا يجيده القارئ غير المتمرس، مما يؤدي إلى وقوعه في متاهة القراءة وبناء التوقعات الخاطئة على اعتبار أنّ ما يقرأ خارج حدود الجنس الروائي، لكن ما ينبغي الإشارة إليه أنّ الرواية مهما بلغ منها التداخل، إلا أنّها تبقى محافظة على كيانها وجنسها، وما احتضان الرواية لتلك الأجناس إلا من باب كسب الخبرة والاستفادة من كل جديد في زمانها لبث الحياة فيها في كل مرحلة من مراحل عيشها.

انطلاقا مما سبق، تعد الرواية وعاءً يصهر فيه الأشكال الأدبية المتعددة والفنون الخطابية على تميزها بعناصرها وأركانها، ولعلّ السيرة الذاتية والغيرية من الخطابات الأكثر التصاقاً



المنارة للاستشارات
ww

بالرواية، فهذا فاولر(fowwr) يرى أنّ " المصطلحات الصيغية يمكنها أن تلحق بكل شيء، وبكل نوع في كل مكان وزمان بينما نعاملها نحن وكأنّ لها وجوداً تاريخياً وجغرافياً محدداً، شأنها في ذلك شأن الأنواع الأدبية المعروفة والمحددة بتاريخ معين "(13).

**ثالثاً: رواية خيط الرّشق وإشكالية التصنيف (14)**

اتّخذت الرواية الأردنية والعربية أنماطاً متعددة من أساليب السّرد والتكنيك في العصر الحديث، وكلّه جاء استجابةً لحركة الحداثة العالمية التي غزت العالم العربي مع نهاية القرن الماضي وبداية القرن الجديد، فمن ملامح التجريب والحداثة في الأدب العربي إعادة صياغة أعمال أدبية قديمة بقوالب جديدة، وإنتاج أعمال أدبية جديدة تتداخل فيها التقنيات والأساليب، وبهذا تكون الرواية قد قطعت أشواطاً كبيرة وعميقة على صعيد البناء الفني، مما يجعلها ويؤهلها لأن تتلاقح مع الأجناس الأدبية الأخرى وتتداخل معه، إذ لم تنحصر في حقل النّوع الروائي، بل نراها تنفتح على فضاء الأجناس الأدبية الأخرى، ولعلّ فضاء السيرة بشقيها الذاتية والغيرية من تلك الفضاءات التي وجدت الرواية فيه ملاذاً، وقناعاً لدى كتّابها، "فالرواية السير ذاتية أحد أكثر الأنواع الروائية تمظهراً في السّنوات الأخيرة، إذ تجلّت السيرة الذاتية للكثير من الروائيين بأساليب وأشكال مختلفة في أعمالهم الروائية، وصارت مرجعية أساسية في تشكيل النّص الروائي"(15).

إنّ انفتاح النّص الروائي على الأجناس الأدبية الأخرى لم يخضع لقيود الجنس التي كبّلته لفترات طويلة، مما أدّى إلى الوقوع في إشكالية التصنيف الروائي، وأصبح القارئ وهو يمارس عملية القراءة معنيٌ بمعاينة النّص وتتبع مراحله، لتكون عوناً له في تصنيف هذا العمل والحقل الذي ينتسب إليه " وإذا كانت الرواية على طول مسيرتها، وعند أكثر الشّعوب ملتبسة بالسيرة الذاتية على نحو ما، فإنّ أحد مسارات تطوّرها يتمثل في أن النّص الروائي صار مفتوحاً على فضاء السيرة بما يختزنه من حكايات مكتملة أو ناقصة، أو مظاهر حكائية، أو مقتطفات على صعيد الحادثة السير ذاتية أو الشخصية أو المكان أو الزمان أو الرؤية، وعندها يسعى الروائي إلى استثمارها على النحو المناسب والضروري للسياق الروائي، وتوظيف معطياتها السّردية في سبيل دعم المنظور الحكائي في الرواية بممكنات سرد قوية وفاعلة"(16).



المنارة للاستشارات
ww

- **المرجعية الروائية**

إنّ القارئ لرواية خيط الرّشق يجد نفسه مأسوراً في قيود السيرة الذاتية لشخصية بطلها عبدالقادر، والتي تعكس بدورها المرجعية تستند إليها هذه الرواية، فشخصية عبدالقادر في الرواية لا تنفصل عن شخصية عبدالقادر خطاب في سيرته الذاتية (الشمس خلف الغيوم)، تلك الشخصية التي عانت سطوة الاحتلال وتهجيره، غير أنّها استطاعت بما تحمله من قوة وإرادة أن تحقق نجاحات في مناحي الحياة كافة، فكونت تلك المراحل التي مرّ بها مخزوناً لكتابة سيرة ذاتية استثمرتها الكاتبة مها مبيضين في رواية خيط الرّشق التي اتكأت على مرجعيات تخصّ عالم بطلها، إذ صاغت عملها بأسلوب يعتمد على السيرة الذاتية لبطلها، فالقارئ لبداية الرواية وعتبة (التنوير) يلاحظ أنّ الكاتبة قد أنشأت مع القارئ ميثاقاً، مفاده المرجعية التي تتكئ عليها في صياغة عملها، إذ تقول: " السنتان التاسعة والعاشرة من عمري، شكّلتا حياتي فيما بعد، وغيّرتا في أسرتي كثيراً، لم نكن أطفالاً في (كفرعانة)، ولا يسمح لك أن تكون طفلاً كما هو اليوم، منذ أن تتعلّم وضع اللقمة في فمك عليك أن تقودك قدماك إلى البحث عنها، وما هو عليك من أعباء أكثر مما لك من حقوق، نصبح في مصاف الشّبان والرجال، وتتأرجح بين الطفولة الكاذبة الموهومة وبين الرّجال، أنت الطّفل إن أرادوا إبعادك عن خصوصياتهم، وأنت الرّجل إن أوكلوا لك عملاً، هكذا تنساح دائرة مراحل النمو في القُرى، لتتداخل مفاصلها بين حين وآخر"(17)، لا شك أنّ ما قدّمته الكاتبة في هذا التنوير يعين القارئ في تصنيفه لهذا العمل رغم تداخلها مع السيرة الذاتية، إذ اتّكأت في صياغة عملها على مرجعيات خاصة عاشها البطل في بلده (كفرعانة)، فالسّرد جاء بضمير المتكلم، وجاءت الأحداث واقعية مستمدة من حياة كاتبه، ففي عتبة (أونو) يحدد الراوي – الذي جاء بضمير المتكلّم- معالم المدينة التي تقع على " امتداد الجهة الشرقية من يافا، وعلى بعد أحد عشر كيلو متراً، مروراً بالعباسية، تمتد قرية كفرعانة، تلك القرية الدافئة البسيطة المحاطة بالحمضيات والأشجار الجميلة"(18).

وفي المقابل جاء في سيرة عبدالقادر خطاب (الشمس خلف الغيوم) عتبات/ فصول تؤكد حقيقة اتكاء الكاتبة في روايتها على عالم بطلها ومن هذه العتبات عتبة (صراع منذ اللحظة



المنارة للاستشارات
ww

الأولى) وفيها يقول: أبصرت عيناي النور في صبيحة يوم قائظ من شهر تموز عام 1944 في قريتي الجميلة كفرعانة، ولعلّ حرارة هذا الشهر هي التي جعلت دمائي فاترة دائماً، حتّى في لحظات الهدوء وأيام الشتاء البارد" (19)، ويتابع قوله أيضاً: " لم تكن ولادتي سهلة، وعانيت فيها خطر الموت، وصارعت من أجل البقاء على قيد الحياة، إنّه صراعي الأول مع الدنيا، فقد ولدت متلفعاً بالبرنس وهي حالة نادرة يعرفها الأطباء، خضت الصراع لكي أخرج من طوق البرنس حياً استنشق هواء الدنيا" (20)، ويتابع الراوي وصف المدينة وما تركته في نفسه من أثر بقوله: " هكذا يبدأ النّغم الأول من قصيدة حياتي، من ذلك المكان المفصح والمبين عن قوّة أبنائه عبر الدهور، تأخذ كفرعانة اسمها القديم (أونو) القوي أو صاحب القوة"(21).

يرى بعض النقّاد أنّ تداخل الأنواع الأدبية في الرواية يأتي في نمطين(22): الأول ما قبل المتن، ويكمن في لوحة الغلاف والعنوان، والثاني في المتن الروائي، وفيه نقف على مجموعة من الأنواع التي تمتصّها الرواية، مع حفاظها على حضورها النوعي وملامحها، ولعلّ من تلك الأنواع التي تحتويها الرواية السيرة الغيرية، لا سيما في مجال الشّخصية إذ " اعتمدت الرواية الجديدة الشخصية ذات الحضور الواقعي نموذجاً إنسانياً يلعب دور البطولة الروائية بصيغتها الجديدة والمغايرة"(23). ففي رواية خيط الرشق نجد أنّ الكاتبة قد اختارت شخصية من عالمها الخاص اتّصفت تلك الشخصية – من وجهة نظر الكاتبة- بصفات جعلت منها أنموذجاً إنسانياً تستحق أن تأخذ دور البطولة في الرواية، ولهذا اتجهت إلى سيرته الذاتية واستفادت من تجاربه لصياغة عملها الروائي.

- **العتبات الروائية**

كُتبت رواية (خيط الرّشق) في مائة وتسع وثلاثين صفحة من القطع المتوسط، متضمنة عتبات/ فصول نصّية وقد جاءت في (ست وعشرين) عتبة، في كل عتبة يطالعنا الراوي على معالم الحياة الخاصة به في بلدة كفرعانة التي تقع في الجهة الشرقية من فلسطين بدءاً من عتبة (أونو) وانتهاءً بعتبة (مساحة المتنفس)، وكلّها سُردت بضمير المتكلم دلالة على شخصية الراوي، ومصورة في الوقت نفسه العلاقة التلاحمية بين ضفتي النهر (الشرقية والغربية)، إذ



المنارة للاستشارات
ww

تنقل الراوي (بطل الرواية) بينهما منذ صغره مع عائلته، حتّى أصبحت فيما بعد ذكرى صاغها سيرة ذاتية استثمرتها الكاتبة مها مبيضين لصياغة عملها الأول في باب الرواية، مما يسمح أن يطلق على هذه الرواية اسم (رواية السيرة الذاتية)، فمن السّمات السير ذاتية في الرواية أنّها سُردت بضمير المتكلم أولاً، ومن ثمّ مطابقة أحداثها للحقيقة وواقع الشخصية السّاردة بعيداً عن الخيال في أغلبها، إضافةً إلى وجود قرائن وعتبات ساهمت هي الأخرى في تقريب جنسي (الرواية والسيرة الذاتية) لاسيما عتبة التنوير في فاتحة الرواية ذلك أنّ " النوع الأدبي وليد تطوّر يتمثل في تواصل صدور أعمال متميزة تخرق قانون نوع مقرّر، فيثير الجدل بين قديم وجديد، ما يؤدي إلى توسيع حدود النّوع، ومن ثُم إن كان التّغير نوعياً يؤدي إلى ظهور نوع جديد، يقرّر ثم توسع حدوده ويتغير في حركة لا تنقطع، ولا تنتهي"(24).

جاءت سيرة عبدالقادر خطاب في (تسعة وأربعين) فصلاً، وهو نظامٌ شبيه بالعتبات الروائية داخل رواية خيط الرّشق، ففي كل عتبةٍ في الرواية نجد فصلاً يقابلها في السيرة، ولهذا فقد اعتمدت عتبات رواية خيط الرشق على نظام الفصول داخل السيرة الذاتية (الشمس خلف الغيوم)، ولهذا نوضح ذلك بالمخطط التالي:

| عتبات رواية خيط الرشق | رقم الفصل في السيرة الذاتية (الشمس خلف الغيوم) |
|---|---|
| أونو | 2 |
| يقرأ القرآن ولا يعرف القراءة | 2 |
| الباب الخشبي | 2 |
| تعبيدات وتحميدات | 2 |
| البرنس | 2 |
| يا تعبنا يا شقانا | 3 |
| خيط الرشق وخيط الإثيكون | 38 |
| البارودة التي تقتل صاحبها | 4 |
| طلت البارودة والسبع ما طل | 4 |
| عابود | 5 |
| سر الحرف | 6 |
| الدليل وفنجان القهوة | 6 |



المنارة للاستشارات
ww

| | |
|---|---|
| الوقوف على الطاولة | 6 |
| رحلة الشوك يا أريحا | 7 |
| خيوط العنكبوت | 23 |
| خيط الإثيكون | 38 +17 |
| مهاجرون وأنصار | 17 |
| مساحة المتنفس | 49 |
| غزّة | 43 |

تعد رواية خيط الرّشق من الروايات التي أحدثت جدلاً في التصنيف، إذ تداخلت مع فن السيرة الذاتية باستعارة تقنياتها الفنية والأسلوبية، الأمر الذي أنتج لوناً سردياً جديداً، يعرف باسم (رواية السيرة الذاتية) التي " تتجلّى من خلال الاعتماد على شواهد أو معرفة مسبقة بالمؤلف، تشير إلى أنّ ما كتبه يعد سيرة ذاتية، أو على الأقل به جزئيات من سيرة الكاتب، وهذا يوجد في مؤلفات عديدة من أدبنا العربي، مثل عودة الرّوح لتوفيق الحكيم، وإبراهيم الكاتب للمازني، وسارة للعقّاد، فالقارئ لا يستطيع أن يتأكّد من جزئية التطابق، وذلك لأنّ هذه الأعمال لم تتضمن عنواناً فرعياً يبين نوعه، هل هو سيرة ذاتية أم يدور في فلك الفن الروائي"(25). لكن ما قامت به مبيضين يختلف كلياً، فهي لم تسرد سيرة ذاتية لنفسها؛ وإنما اتّكأت على السيرة الذاتية لبطلها، وصاغت كل ما يحيط به من تجارب بدءاً من مرحلة الطفولة وانتهاءً بمرحلة سن الستين وهي المرحلة الأخيرة من كتابة سيرته الذاتية.

تعد رواية السيرة الذاتية من أبرز ظواهر السّرد الروائي التي أنتجتها حركة الحداثة والتجريب في العالم العربي، إذ إنّها – رواية السيرة الذاتية- تأخذ جانباً سيرياً، ولكنّها ليست سيرة ذاتية، وفي ذلك السياق سنجد مقاربات نقدية تشير إلى أنّ السيرة الذاتية تختلف عن شكل الرواية، فالسيرة الذاتية تختلف عن الرواية، في كون مؤلف السيرة الذاتية يرعى اعتماده على الحقائق أكثر من بناء القصص، ولا شك أنّ رواية خيط الرّشق من الروايات الأردنية التي تداخلت فيها سمات السيرة الذاتية بتوظيفها لتقنيات سردية خاصة بالسيرة الذاتية، وهو طورٌ جديدٌ من أطوار الحداثة والتجريب التي تمرّ به الرواية العربية والأردنية على وجه الخصوص،



المنارة للاستشارات
ww

ففي إطار الحديث عن التداخل بين الرواية والسيرة الذاتية، ينبغي علينا أن ندرك روابط كثيرة تربط بينهما، ولعلّ من أهمها موقع الراوي والطريقة التي يقدّم بها سرده للأحداث، إضافةً للميثاق الذي يعقده الكاتب مع القارئ، ولا ننسى الدور الذي تؤديه العتبات النّصية، لاسيما التقديم والإهداء، والعنونة الفرعية التي تتخللها الرواية " فالكاتب يعمد إلى معالجة وقائع شتّى في حياته أو حياة الآخرين في إطار الرواية، وقد جاء إقرار العديد من الروائيين بحقيقة أن بعض أعمالهم الروائية، جاءت وثيقة الصّلة بحياتهم، ومنهم إلياس فركوح في روايته قامات الزّبد"(26)، وأحسب هنا أن هذه الرواية – خيط الرّشق- قد اتّكأت على وقائع حقيقية في مسيرة بطلها، إذ أشارت إلى الفترة الممتدة على مدى ستين عاماً من حياة بطلها، يتضمنها وصف الحياة الأردنية والفلسطينية البسيطة، فنراها تسرد قولها: " ما بدأ تحقيق حلمي يقترب، وتفتح السماء أبوابها لي لأخرج من برنس طفولتي اللاهثة، ويوشك أن يتحقق حلمي ليحمل قلم وورقة شأن بقية من أراهم، حتّى حلّت سنة (49/48) لتدمّر قريتي (كفرعانة) تدميراً كاملاً باجتياح اليهود لها، كنتُ أظنّ أمراً ما سيحدث.....، وبدأ اليهود يبنون المستعمرات، وينطلق أهل كفرعانة مهجّرين مبعدين، ويضيع صراخي الطفولي بين أوجاع الآخرين وصراخهم، لندخل في عامٍ جديد، ورحلة جديدة تتفيأ مساقط الظل أينما حلّ وارتحل"(27).

لعلّ من باب التوضيح يستلزم إعداد مقارنة بين عتبات الرواية وفصول السيرة الذاتية، وخير ما يمكن تناوله في هذا المثال التوضيحي– إضافة لما سبق في الجدول أعلاه- (عتبة أونو) التي يبدأ البطل وصف بلدة كفرعانة حيثُ يقول: " على امتداد الجهة الشرقية من يافا، وعلى بعد أحد عشر كيلو متراً مروراً بالعباسية، تمتد قريتي كفرعانة، تلك القرية الدافئة البسيطة. المحاطة بالحمضيات والأشجار الجميلة، يقبع داخلها الدفء والحنان، وتنتقل الأنفاس الإنسانية لتنحو على مزارعها بكرة وعشيّا"(28)، في المقابل ورد في فصل من فصول السيرة الذاتية (الفصل الثاني: زهر الليمون) قول الكاتب: " تبعد كفرعانا، حبيبتي ومسط رأسي عن يافا عروس المتوسط بضعة كيلو مترات فقط، هذه المسافة لم تحجب عبير زهر البرتقال والليمون، كم أحببت هذه الرائحة وعشقتها"(29).



المنارة للاستشارات

وبتتبع سائر الحوادث في الرواية تزداد قناعاتنا بأن الكاتبة تسرد لنا ذكريات وأحداث الطفولة المعذّبة لبطلها في نمط روائي، مما يعزز القول إنّ هذه الرواية لا تختلف عن نماذج السيرة الذاتية والمذكرات، ذلك أنّه ليس من اليسير الفصل بين فني الرواية والسيرة الذاتية، لأنّ السّرد يمكّن الروائي متى يشاء أن يوظف راوياً يسرد الأحداث بضمير المتكلّم، وبهذا لا تختلف السيرة الذاتية عن الرواية القائم بسردها ضمير المتكلّم، إلا في القصدية " فإذا صرّح المبدع بأنّه سيكتب سيرة ذاتية، فإنّ عمله عند ذلك سيرة ذاتية حقيقية، وأمّا إذا لم يصرّح بذلك، فهو يكتب عملاً روائياً عادياً مهما كان نوع الرواية التي يكتبها، بل إنّه إذا نسي أن يكتب سيرة ذاتية، أو تعمّد ذلك، فإنّ عمله هذا لا يعد من السيرة الذاتية إلا بمغامرة نقدية"(30)

ورد في الرواية أنّه كان للسنتين التاسعة والعاشرة من البطل – كما أشارت الكاتبة في عتبة التنوير- الأثر الكبير في صياغة هذه الرواية، مما يعزز أنّ – الكاتبة – قد اعتمدت أسلوب السيرة الذاتية لبطلها، فهي تقول: " أذكر هاتين السنتين بدّقة، أذكر كثيراً من التفاصيل، لا تتخيل أنّ طفولتنا بعيدة عن مجتمع الرّجال وعن أحداث القرية، نعرف الكثير ولكنّا لا نحلل هذه الأحداث، هذا هو ملخّص حياة الطفل في القرية، يعرف ويشاهد الأحداث، ويسردها بدّقة ليحل محلّها تحليل أحداثها شيء من الخيال العفوي، وإنني استغرب من نفسي وأنا في السّتين من عمري الآن، كيف أذكر هذه الأحداث بدّقة، ربّما يطلق عليّ مقولة : من يصل الستين ترتد ذاكرته إلى الطفولة بشكلٍ حي وقوي....، استغرب كيف أذكر كل شيء بدّقة فتصوّر الأحداث أمامي كأنّها آتية البارحة، وقد يتفاوت هذا من شخص لشخص، لكنّ طبيعتي التي تميل إلى الحساب، وما عُرف عني من ذاكرة قوية ساعد في ذلك"(31)،

إنّ من معززات الوجه النقدية التي يسير فيها الباحث الحالي والتي تتمحور في تداخل فني الرواية والسيرة الذاتية، قول الراوي إنّه في سن الستين، ومما يعرف عن مها مبيضين الأكاديمية أنّها لم تصل هذا العمر بعد، إضافة إلى أنّ الأحداث والأماكن التي عاشتها مبيضين مختلفة تماماً عمّا عاشها بطل الرواية، ولهذا تنطبق هذه الأحداث والأماكن مع ما ورد في سيرة عبدالقادر خطاب الذي عاش هذا العالم في سيرته الذاتية الشمس خلف الغيوم، ولهذا فإنّ للأسلوب السردي والفني الذي سردت به هذه الرواية الدور الكبير في عملية التداخل بين



المنارة للاستشارات
ww

الرواية والسيرة الذاتية، ذلك أنّ " التراسل الأسلوبي والفني بينهما إضافةً إلى أنّ المتخيل والحقيقي فيهما نسبي، وكثيراً ما يتم تعطيله لصالح هذه القراءة أو تلك، كما أنّ التحديد الأجناسي يتم إبطاله، فكل جنس كما يقول جينيت: بإمكانه أن يحتوي على عدّة أجناس، فالنّص هو الجامع المشترك بين الأنواع حتّى وإن تمّ تجنيسه"(32).

بهذا نقف في رصدنا للرواية الأردنية التي تتداخل مع السيرة الذاتية على رواية خيط الرّشق للروائية الأردنية مها مبيضين، وهي رواية اتسمت بطابع التجريب، إذ أخذت صاحبتها على نفسها عاتق الخوض في غمار هذا الباب النثري الكبير وهو باب الرواية، حيثُ تعد هذه الرواية، من الأعمال الروائية الأولى لها في هذا الباب، مما جعل منها رواية قائمة على مخزون الذاكرة والترجمة الذاتية لبطلها، فجاء سردها بضمير المتكلّم، " وليس غريباً أن نجد الكاتب الذي يؤلّف روايته الأولى، يشغف وينبهر بهذه الطريقة- السّرد بضمير المتكلّم- ويجعل نفسه الشّخصية المحورية في الرواية، فإذا بنا نراه يحقق فيها لنفسه أشياء خطيرة وهامة لم يحققها في واقع الحياة، حتّى تصبح الرواية بمثابة اعترافات بأحلام اليقظة التي راودته"(33). وهذا ما سارت فيه الكاتبة؛ فقد تقمّصت دور البطل (عبدالقادر) واستخدمت ضمير المتكلم واتّكأت على سيرته الذاتية لتكون عوناً لها في صياغة أول أعمالها الروائية، ونحن نستطيع القول إنّ الأمر قد تجاوز اتكاء الكاتب استخدام ضمير المتكلم في روايته الأولى إلى الاستفادة من السير الذاتية لشخصيات لها حضورها في مجالات متعددة، وأحسب هنا أنّ ما قامت به مبيضين يعد في طور التجريب لا سيما وأنّها تكتب الرواية الأولى لها، فعبدالقادر خطاب شخصية اتّسمت بالكفاح والاجتهاد، وقد خرجت من أحوال وظروف صعبة وعاشت التشرد والتهجير والاحتلال، غير أنّه استطاع أن يؤسس لنفسه أرضية صلبة يقف عليها، ويظهر ذلك جلياً في جل فصول سيرته الذاتية لا سيما في فصل (قصّة اعتماد بنكي)، حيثُ يقول: " اسست شركة خاصة باسم شركة التنمية والتجارة الدولية، وسجلتها باسمي واسم زوجتي – رفيقتي وشريكة حياتي- برأسمال 10 آلاف دينار، وقدمت طلباً للانتساب لنقابة مصدري الفواكه والخضروات، وبدأت أواجه المتاعب، وبدأت المصاعب تعترض طريقي قبل بدء العمل"(34)، ويقول في موضع آخر من السيرة " نجحت بتصدير 3 آلاف طن من البرتقال في المرحلة الأولى، إنّ الحظ لا يأتي للإنسان إلا مرة واحدة، والمحظوظ من يغتنم الفرصة ولا يدعها تفلت من بين يديه، الرزق من



المنارة للاستشارات
ww

عند الله يؤتيه من يشاء، كان أبي يقول دائما عندما تضيق الأحوال: رزقكم في السماء وما توعدون"(35).

- **السّرد بضمير المتكلم**

لقد سُردت رواية خيط الرّشق بضمير المتكلّم منذ بدايتها وحتّى نهايتها مستذكرةً حياة صاحبها من الطفولة وحتّى بلوغ الستين، مما يعزز العلاقة بين الرواية والسيرة الذاتية، ولعلّ الجنوح للاغتراب كان له الأثر الكبير في هذا التداخل، ذلك أنّ اتّصال الرواية بالاغتراب جعلها تجنح إلى منابع السيرة الذاتية لإثراء المادة الخام بمعطياتها في عملية تبدو وكأنّها عودة للجذور، أو انقطاع المرجعية التي تستند إليها الكيان الإنساني في تماسكه واستمرار وجوده"(36)، ففي عتبة (مساحة المتنفس) وفي السطور الأخيرة من الرواية، يكشف الراوي عن شعوره بالغربة إزاء ما حدث لبلده، حيثُ تقول" على الشاشة الصغيرة، شاهدت جثث أطفال (غزة) وبقية أشلاء الأحبة فيها، لا مستسلمين ولا مطأطئين، ولكن القهر يحيط بنا، وتغرق الذات فينا لتنكفئ على ذاتها أسيرة حزينة، فوداعاً يا تلك النّظارة البكر، وداعاً يا رائحة البرتقال ويا زهر الليمون، ولتبدأ رحلة الشّقاء والصّمت، وليضاف إلى خربة (كفرجون) خربة جديدة يلعب الأطفال فيها بأشلاء الموتى، وبشقف الفخار غير آبهين بمن سقطوا، ونامت ذكرياتهم في كفرعانة يلمع الحجر بأيديهم خيطاً من الرّشق، وتبدأ حكاية طفل صغير في غزّة، بيد واحدة يكتب رواية لم يسعفه الوقت لأنهائها...."(37).

جاء في سيرة عبدالقادر خطاب سرد يتداخل ويقترب مما يسرده بطل الرواية عن نفسه، إذ يقول في السيرة الذاتية، في الفصل الثامن الثلاثين بعد أن اتصل بصديقه عبدالله البشير لإقامة بناء مستشفى: " بدأت أبحث عن مكان مناسب لإقامة البناء، اشتريت أرض المستشفى وتم تسجيلها واشتريت قطعة لحسابي الخاص دفعت عربونا لمالك الأرض ولكنه لم يصرف الشيك انتظر مدّة وارتفع سعرها ثلاثة أضعاف لم أتردد ودفعت الثمن الجديد أذكر أنّه (350000) دينار"(38)، وورد في السيرة أيضاً (فصل خيوط الأوتيكون) قوله" كانت خيوط الأوتيكون الذي تحمست له كثيرا يذكرني بخيط الرشق وجدت رابطاً قوياً، وقد استخدمت أمي خيط الرشق بفنونها الراقية لصنع الثياب التي تستر الأجساد وتضفي عليها جمالاً، وكان خيط



المنارة للاستشارات

الأوتيكون يضمد جراح الأجساد النازفة، ويعيد إليها جمالها وما فقدته من بهاء، كانت العلاقة بين خيط الرشق وخيك الأوتيكون سراً لا يعرفه أحد غيري، وكان أحد أسباب اندفاعي وراء المشروع"(39).

في المقابل ورد في متن السرد الروائي حديث البطل عن نفسه، إذ يقول: " أصبحت فيما بعد وكيلاً لخيط الإثيكون في هذه البلاد خيط الجراح، ولم أسمح يوماً لخيط العنكبوت أن يحجب عني ضوء خيط الرشق، كلما تاقت نفسي إليه لمع وسطع أمام عينيّ، وكلّما أمسكت يدي عيّنة من خيط الإثيكون شدني خيط الرشق إلى الجهة الشرقية من يافا حركة لامعة تجوب العباسية وتدخل قريتي كفرعانه ألهو بها، وأداعب طفولتي بين حواريها وأزقتها، فيا خيط الإثيكون ومتى سيلمع على أجسام نسائنا خيط الرشق من جديد، وينبثق عنّي برنسي الأبدي، وأصرخ بالحياة أريد أن أصيح، فالكرة الأرضية وطن الإنسان. خيط الرشق صنعة أمي وزينة بلادي. وخيط الإثيكون صنعة مشافي، وسر جرحى بلادي، ولكن متى نقول معاً: وداعاً للجراح"(40).

بهذه النصوص المقتبسة من فن السيرة الذاتية لشخصية عبدالقادر خطاب (الشمس خلف الغيوم) تحيك مبيضين روايتها خيط الرشق، مما يحدث إشكالية في التصنيف؛ فالرواية بهذا الطرح متّكئة على فن السيرة الذاتية لشخصية بطلها في البناء والتشكيل.

**الخاتمة**

لقد تضافرت في رواية خيط الرّشق مجموعة من السمات السردية والتقنيات الفنية، التي تجعل منها رواية قريبة من السرد السير ذاتي، بدءاً من موقع الراوي والسّرد بضمير المتكلّم (الأنا)، ووقوفاً على الأحداث التي اتّسمت بالحقيقة وبعدها عن الخيال، ومروراً بالأسماء ودلالاتها، وانتهاءً باتصالها بالاغتراب الذي أتاح للشخصية العودة إلى الماضي واستذكار مرحلة الطفولة ومصاعبها، بهذه العناصر مجتمعة تحيك لنا مها مبيضين رواية مشبعة بعبق الذات لشخصية بطلها، معتمدة على شريط الذكريات الخاص به- وإن كانت متحفظة في كثير من الأحيان- وهي بهذا تكون قد فتحت طرائق جديدة للدخول إلى النّفس الإنسانية بكل ما فيها من خبايا ومكبوتات، واستثمارها إبداعياً، فكل ما يحيط بالمؤلّف من تجارب وخبرات ومشاهدات



المنارة للاستشارات
ww

وعلاقات كلّها طوع الكتابة لديه، مما يكوّن عنده معين لا ينضب ومخزون لا يفنى، الأمر الذي ينعكس على الكتابة الروائية عنده، ويثيرها عند التداخل، ومها مبيضين من الكاتبات الأردنيات اللواتي استثمرن فن السيرة الذاتية لشخصيات تركت أثراً في نفسها لما عانته من تعب الحياة وقسوتها، ولعلّ شخصية عبدالقادر خطاب كان ملاذاً لها في إنتاج أول أعمالها الروائية، مما أدخلها في دائرة الاتهام والوقوع في إشكالية النوع، لدرجة يجوز أن يطلق عليها أنّها (رواية السيرة الذاتية) بكل اقتدار.

إنّ ما يحسب للكاتبة في العمل أنّها استخدمت ضمير المتكلم المذكر مما يبعدها عن مغبة الوقوع في شباك السيرة الذاتية الخاصة بها، ويعزز في الوقت نفسه حقيقة أنّها تسرد سيرة ذاتية لشخصية أخرى، ولهذا نستطيع القول: إنّ رواية خيط الرشق رواية السيرة الذاتية لشخصية عبدالقادر خطاب، وفيها تستخدم الكاتبة طرحاً جديداً في باب الرواية تقف في سردها للأحداث موقفاً خارجياً، وتكتفي بإحالة السرد إلى الراوي (البطل) الذي يأخذ ضمير المتكلم المذكر، مما يقودنا للفصل بين المؤلف والراوي؛ فالمؤلف لا يتماهى مع الراوي ولا يعدُ بأي حالٍ من الأحوال وجهاً من وجوهه رغم ما قام به من إضافات على نص السيرة الذاتية، وإنما هناك فرقٌ بين من يكتب الأحداث ويسردها، فالكاتب مها مبيضين والسّارد عبدالقادر خطاب، ولعلّ هذه المفارقة هي التي أحدثت تداخلاً ما بين الرواية والسيرة الذاتية بدرجة كبيرة.



المنارة للاستشارات

## هوامش البحث

1- عادل ضرغام، في السّرد الروائي، الدار العربية للعلوم، لبنان، 2010 ص 137

2- فيليب لوجون، السيرة الذاتية، ترجمة علي حلي، المركز الثقافي العربي، لبان، 1994 ص 38

3- إحسان عباس، فن السيرة، دار الثقافة، بيروت-لبنان، 1978ص 85

4- نقلاً عن ادل ليون، فن السيرة الأدبية، ترجمة صدقي حطاب، دار العالم العربي للنشر والتوزيع، دبي، 2009 ص 19

5- عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان- مكتبة بيروت، 1992 ص 1

6- فيليب لوجون، السيرة الذاتية ص 22

7- عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية ص 18

8- نقلا عن يمنى العيد، السيرة الذاتية الروائية والوظيفة المزدوجة: دراسة في ثلاثية حنا مينا، مجلة فصول، مصر، مجلد 15، عدد4، 1997 ص 13

9- شعبان عبدالحكيم محمد، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية تقدية)، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، كفر الشيخ- مصر 2008 ص 14

10- والاس مارتن، نظريات السّرد الحديثة، ترجمة حياة جاسم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998 ص 97

11- انظر يحي إبراهيم عبدالدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحدبث ص ص 32-35

12- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر، القاهرة، 1987 ص ص 88-89

13- خيري دومة، رواية السيرة الذاتية، مجلة نزوى، موقع على شبكة الانترنت

14- مها مبيضين، خيط الرّشق، دار ورد، عمّان، 2010

15- محمد صابر عبيد، رواية الرحلة وتجليات الفضاء السير ذاتي، أفكار، الأردن،عدد306، تموز 2014 ص 142

16- محمد صابر عبيد، رواية الرحلة وتجليات الفضاء السير ذاتي ص 142

17- مها مبيضين، خيط الرّشق ص 7

18- نفسه ص11

19- عبدالقادر خطاب، الشمس خلف الغيوم، مكتبة الطليعة العلمية، عمّان، 2013 ص 19

20- المصدر نفسه ص 20

21- مها مبيضين، خيط الرّشق ص 11



المنارة للاستشارات

22- انظر، مصطفى الضّبع، تداخل الأنواع في الرواية العربية، مؤتمر النّقد الدولي، جامعة اليرموك- الأردن، 2008، الأردن ج 2 ص ص 646- 680

23- نفسه ص 658

24- عبدالمجيد زراقط، الأنواع الأدبية بين تداخل الأنواع وتميّز النّوع، مؤتمر النقد الدولي جامعة اليرموك- الأردن، 2008، الأردن ج1 ص 882

25- عادل ضرغام، في السّرد الروائي، ص 138

26- محمد صالح الشنطي، تداخل الأنواع في الرواية الأردنية، مؤتمر النّقد الدولي، جامعة اليرموك- الأردن، 2008، الأردن، ج2، 420

27- مها مبيضين، خيط الرّشق ص 77

28- المصدر نفسه ص 11

29- عبدالقادر خطاب، الشمس خلف الغيوم ص 23

30- يحيى عبابنة، بيضة العقرب بين السيرة الذاتية والتخييل (نظرات في ألية الأداء)، ضمن كتاب الرواية الأردنية على مشارف القرن الواحد والعشرين (دراسات تطبيقية)، أوراق ندوة جمعية النقّاد الأردنيين 10-11/5/2008، عمّان، صنّاع التغيير، 2011ص 135

31- مها مبيضين، خيط الرّشق ص 51

32- محمود محمد أملودة، الزمن المستعاد: ظلال السيرة الذاتية في الرواية الليبية، مؤتمر النّقد الدولي، جامعة اليرموك- الأردن، 2008، الأردن ج2 ص 604

33- سيد حامد النساج، بانوراما الرواية العربية الحديثة ، دار غريب، الفجالة، ط2، 1985 ص 33

34- عبدالقادر خطاب، الشمس خلف الغيوم ص 147

35- المصدر نفسه ص 148

36- أحمد درويش، تداخلات النّصوص والاسترسال الروائي: تقاطعات رواية السيرة الذاتية ورواية الاغتراب، فصول، مصر، مجلد16، عدد4، 1998 ص 35

37- مها مبيضين، خيط الرّشق ص ص 137- 138

38- عبدالقادر خطاب، الشمس خلف الغيوم ص 238

39- عبدالقادر خطاب، الشمس خلف الغيوم ص 243

40- مها مبيضين، خيط الرشق ص 128



المنارة للاستشارات
ww